سينما

في رحيل لحسن زينون

جمالٌ لا تذروه الرياح

في 16 يناير 2024، توفّي الكوريغراف والسينمائي المغربي لحسن زينون بعد سيرة مهنية حافلة بإنتاجات أساسية وبتحديات أثّر بعضها سلباً عليه

سعيد المزواري

مشهدان يُعبّران، أكثر من غيرهما، عن روح الرؤية التي طبعت سينما الكوريغراف والمخرج السينمائي المغربي لحسن زينون، الذي رحل في 16 يناير/كانون الثاني 2024، بعد تعرّضه لغيبوبة، إثر سكتة دماغية مباغتة:

1-) نوافذ تنفتح تباعاً بعد الكاميرا، التي تؤطر آثاراً تركها مرور البيانو على ممرّ الدرج الضيق، بينما تنبعث مقطوعة لفريدريك شوبان، من عزف الشاب الذي نجح أخيراً في توطيد الآلة العظيمة وسط البهو، وبالتالي التحرّر من سلطوية الأب، ورفضه المرضي للفن، في «بيانو» (2002)، الفيلم القصير الثاني لزينون، أكثر أعماله تأثّراً بسيرته الذاتية. بلاغةٌ حول قدرة الموسيقى على إشراع أبواب الممكن على اتّساعها، وإطلاق الطاقات.

2-) مشهدٌ ثانٍ مَنح السينما المغربية أحد أجمل ملصقاتها، من «عود الورد أو الجمال الذي ذرته الرياح» (2007)، أول روائي طويل له، حين تصعد الشابة المستعبَدة برفقة طبيبها (كلّ واحد منهما متّشح بالبياض) درجاً فسيحاً وشاهقاً، باتجاه مستشفى الاضطرابات العقلية، كأنّ كلّ وجهة . تنأى بالإنسان عن جحيم الاضطهاد والقهر. تسمو به بالضرورة. ولعلّ عزف عود الورد أمام جمهور من المضطربين عقلياً (في تقاطع لافت للانتباه، ودالٍّ بتزامنه مع نهاية رائعة المخرج الجزائري رابح عامر زعيمش، «بلاد نمبر وان»، 2006) يقول كلّ شيء عن دور الفن في تحرير المرأة من عقال الذكورية، والحمولة الإنسانية المقترنة بالثقافة والفنون في عينيّ زينون، وحقّ الجميع في الولوج إلى منافعهما الروحية والعقلية.

هذه معركة نذر الراحل لها نفسه، ودفع لقاء ذلك ثمناً غالياً في محطّات فاصلة من حياته، كما يروي في كتاب مذكّراته «الحلم المحظور» («منشورات مها»، 2021). انطلاقاً من معاناته فرض رغبته في تعلّم الرقص، منذ أنْ تنامت إلى مسامعه نغمات بيانو مقبلة من نافذة المعهد الموسيقي، بينما كان يتجوّل وسط الدار البيضاء، بعيداً عن هوامش «الحي المحمّدي»، حيث وُلد (14 سبتمبر/أيلول 1944) وترعرع في أجواء زاخرة بالحياة الصاخبة، وفنون العزف والرقص والغناء، التي حملتها معها عائلات مغربية، نزحت من مختلف أنحاء المغرب، بحثاً عن ظروف عيش أفضل، ما ساهم في إغناء ثقافته الشعبية. بعدها، وجد زينون في بلجيكا ملجأً لتفتّق موهبته في الرقص، وتسلّق مراتب التألّق، إلى حصوله على مرتبة Danceur étoile في «فرقة الباليه الكلاسيكي»، لـ«المعهد الملكي» في «والوني»، ما أهّله لاحقاً ليشتغل ككوريغراف لأفلام سينمائية مهمة صُوّرت في المغرب، كـ«أيام شهرزاد الجميلة» (1982) لمصطفى الدرقاوي، و«الإغواء الأخير للمسيح» (1988) لمارتن سكورسيزي، و«السماء الواقية» (1990) لبرناردو برتولوتشي، و«لعنة الفرعون» (1996) لسهيل بنبركة.

> معاناة كبيرة أثناء سعيه إلى فرض رغبته في تعلّم الرقص

عاد لحسن زينون إلى المغرب تدريجياً، بين سبعينيات القرن الـ20 وثمانينياته، ما يدلّ على الإشارات المتذبذبة والمتناقضة التي بعث بها إليه وطنٌ، يتأرجح بين قوى المحافظة، وكلّ ما تحيل إليه من تحجّر ديني واستبداد سياسي، وتيار العصرنة، بحمولته التحرّرية والمتمرّدة على التقاليد الرجعية، وعقلية التحكّم. ولعلّ الحدث الذي يركّز هذا التوجه، مرخياً بظلاله الثقيلة على النصف الثاني من حياة الفنان، كان حين استُدعي على عجل من مدريد، عام 1986، لتقديم عرض من 7 لوحات فنية، تمزج الرقص والموسيقى الشعبية المغربية بروح مُستلهَمة من الرقص المعاصر، لاقى سابقاً نجاحاً كبيراً في «مسرح محمد الخامس»، لكنْ أمام نظر الحسن الثاني في القصر الملكي بالرباط، هذه المرّة. ما إن انطلق العرض، حتى تملّك الغضب الملك الراحل، المُصرّ على الحفاظ على الطابع الأصيل للتراث المغربي من كلّ تحوير وتغيير، فأوقف الفرقة، واستدعى زينون ليوبّخه بشدّة، مُحظّراً إياه بلهجة مهدِّدة أيّ «مسٍّ بالتراث الشعبي المغربي» في المستقبل.

بغض النظر عن انعكاساته النفسية الآنية المدمّرة، ترك هذا الحدث آثاراً وخيمة في مسار الفنان، وتوقه إلى تطوير ثقافة الرقص المعاصر في المغرب. في السنوات الأخيرة، سعى إلى الشفاء من ترسّبات هذه الفترة، عبر تمثّلها في سيرته الذاتية، في فيلم سينمائي طويل، تدلّ كلّ تفاصيله الواردة في المذكّرات، أو حين يحكيها في لقاءاته التقديمية بعينين لامعتين، وقدرة مذهلة على زرع الترقّب وشدّ حبال التوتر، على أنّنا إزاء سيناريو بهامش درامي وجمالي مثير للاهتمام. لكنْ، يبدو أنّ «حرّاس المعبد» لا يزالون يناكفون كلّ محاولة حقيقية وجريئة لمصالحة حقيقية مع الماضي، وتجاوز عثراته.

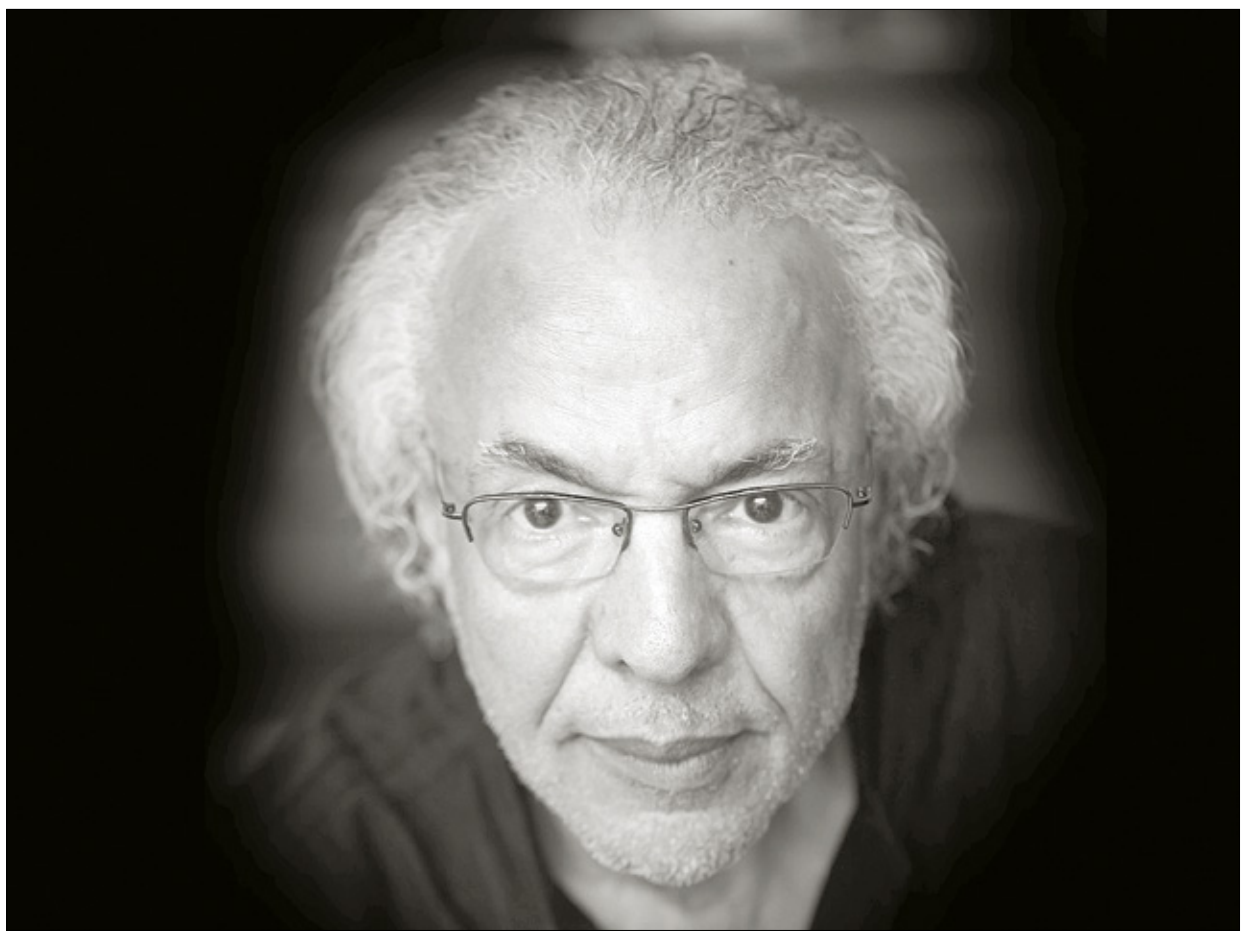

لحسن زينون (1944 ـ 2024): الركون أشرس الأعداء (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

«قتلة زهرة القمر» لسكورسيزي

مقاربة سينمائية تُناقش التاريخ الأسود لأميركا

عبد الكريم قادري

يُثبت مارتن سكورسيزي (1942)، بعد كلّ فيلم ينجزه، أنّه صاحب موهبة ومعرفة ومواقف، يملك المرجعية السينمائية المناسبة التي تؤهّله ليكون «خالداً»، نظراً إلى ما قدّمه من أفلام فاصلة، ذات محمول جمالي منوّع، لا يُستغنى عنها بمجرد الانتهاء من عرضها الجماهيري المحدود، بل تبقى وثائق بصرية، وحججاً فنية، يتمّ العودة إليها كلّ مرة، من محبّي السينما وصنّاعها؛ خاصة أنّه يعرف جيداً كيف يختار مواضيعه، بل كيف يُجيد اقتناصها، وعندما ينضدها ويعالجها وينتهي منها، يقدّمها مثقلة بأسئلة محورية، تُشجّع على النقاش، وتفتح جراحاً قديمة، لم تندمل بعد، من أحداثٍ سوداء لم تسقط بالتقادم من قلوب كلّ من يحمل أوجاعهم ومآسيهم. هذا فعله أيضاً في فيلمه الأخير، «قتلة زهرة القمر»، المعروض للمرة الأولى دولياً في الدورة الـ76 (16 ـ 27 مايو/ أيار 2023) لمهرجان «كانّ» السينمائي.

صدفةٌ أنْ يتزامن عرض الفيلم مع ما يحدث حالياً من إبادة جماعية في قطاع غزّة. تتجلّى الصدفة في تناول الفيلم جزءاً مما تعرّض له الهنود الحمر (قبيلة «أوساج») من جرائم عنصرية وعرقية، وتصفيات جماعية وقتل وتشريد في عقود من الزمن، للاستيلاء على أراضيهم التي عمّروها منذ قرون، من الرجال البيض القادمين من أوروبا ودول أخرى، ليستقرّوا في أميركا، التي جمعت شتاتهم على أرضٍ لم تكن يوماً أرضهم. إنّها الجرائم نفسها، والأطماع والسبل نفسها، التي تحدث في فلسطين. الزاوية العبثية في المسألة أنْ تكون أميركا طرفاً أساسياً في الجريمة الأولى، التي حدثت سنة 1920، وقبلها وبعدها، في أوكلاهوما ومدن أخرى؛ وطرفاً فاعلاً في الجريمة الجديدة، التي تجري حالياً في قطاع غزّة بعد قرن و3 سنوات. والغاية واحدة دائماً: توسّع وعنصرية ومال.

> فيلم يروي إبادة سكّان أصليين كما يحدث حالياً في غزّة

اقتُبس «قتلة زهرة القمر» من كتاب بالعنوان نفسه (2017، مع عنوان فرعي: جرائم قتل في أوساج وولادة «المكتب الفيدرالي للتحقيقات») للصحافي والكاتب الأميركي ديفيد غران، ينقل ما حدث لقبيلة «المياه المتوسّطة»، المعروفة بـ«أوساج»، التسمية التي أطلقها المستعمر الفرنسي عليها. عرفت القبيلة، التي تنتمي إلى السكان الأصليين، هجرات قسرية عدّة فرضتها عليها الجيوش الأميركية، واستقرّ بهم الحال في منطقة أوكلاهوما، بعد التوقيع على تسوية مع السلطات الفيدرالية. لكنّ واقع الحال تغيّر كلّياً بين عامي 1920 و1930، بعد اكتشاف النفط في أراضيهم، ما جلب لهم جشع الرجل الأبيض الباحث عن المال والربح السريع، فمارس جرائم تصفية بحقّ كثيرين منهم، لتحويل ملكية الأراضي والأسهم إلى جهات معيّنة من البيض، ولفائدة شركات النفط التي ملأت المكان، ما عرّض حياة «أوساج» إلى خطر كبير، وحتّم على فئة واسعة منهم الهجرة إلى أماكن أخرى، لتجنّب القتل، بينما تحوّلت حياة من بَقِي إلى مَشاهد رعب لا تنتهي، وسط تلك الجرائم الكثيرة.

هذا حدث مع الشابة الجميلة (أوساج)، مولي بوركهارت (ليلي غلادْستون، «غولدن غلوب» أفضل ممثلة في فيلم درامي، 7 يناير/ كانون الثاني 2024)، بعد فقدانها معظم أفراد عائلتها في جرائم متفرّقة.

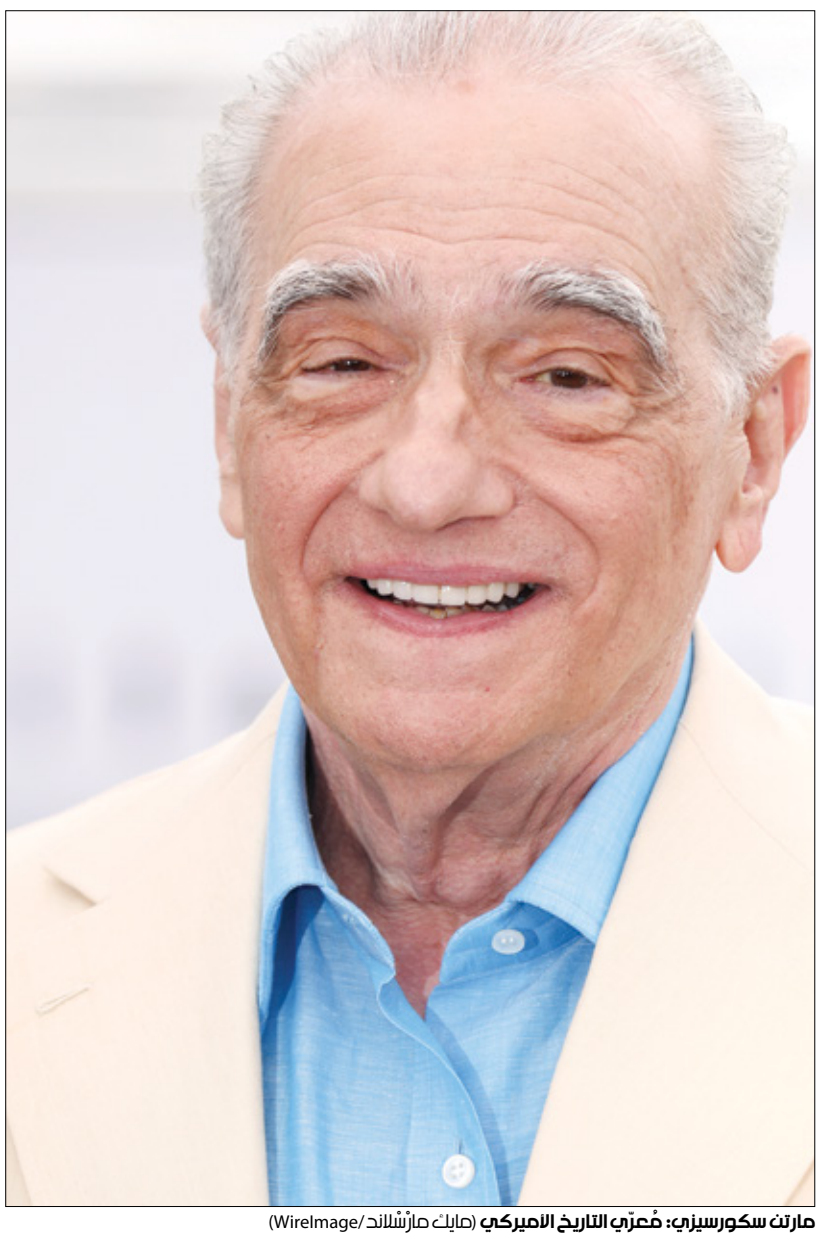

مارتن سكورسيزي: مُعرّي التاريخ الأميركي (مايك مارْشلاند/WireImage)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أفلام جديدة

■ Sometimes I Think About Dying

لرايتشل لامبير، تمثيل ديزي رايدلي (Getty): قُرانٌ موظّفة عزباء في شركة موانئ صغيرة، في ولاية أوريغون. تعاني خجلاً شديداً، وتعيش حياة خالية من أي خيال، باستثناء أحلام يقظة غريبة تتخلّى عنها سريعاً. تتغيّر الأمور عندما يتظاهر روبرت، وهو مجنّد ودود وغريب الأطوار، بأنّه مهتمّ بها.

■ A Cooler Climate

وثائقي لجيمس إيفوري (Getty) وجيل غاردنر: عام 1960، سافر المخرج الأميركي جيمس إيفوري (1928) إلى أفغانستان، لتصوير فيلم وثائقي، لم يُنجز، فظلّت اللقطات في صندوق السيارة 60 عاماً. في 2022، مع بلوغه 94 عاماً، تعمّق في هذه المادة الفريدة، مُتذكّراً شبابه، وساعياً إلى فهم كيف ساعدت هذه الرحلة غير المُحتملة في تكوينه، وجعله ذاك المخرج المشهور.

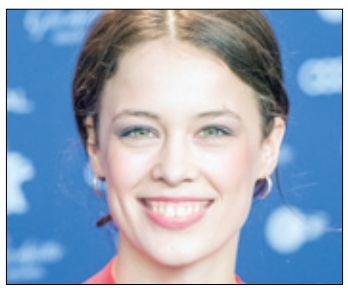

■ Stella. Ein Leben

أو «ستيلا، حياة واحدة»، لكيليان رايدْهوف، تمثيل بولا بيير (Corbis-Getty): نشأت ستيلا في برلين النازية. تحلم بأنْ تصبح مغنية جاز، رغم إجراءات القمع. تُجبَر على الاختباء مع والديها، عام 1944، فتتحوّل حياتها إلى مأساة. الفيلم مستوحى من القصّة الحقيقية لستيلا غولدشلاغ.

تحية لعادل إمام: لا راحة لفنان في بلده

نديم جرجوره

لا يُراد لعادل إمام راحة. غيابٌ عن المشهد يُثير كلاماً غير لائق إلّا بمن يتفوّه به، إذْ يقترب معظمه من شتمٍ أو سخريةٍ، لكنّه يبقى فارغاً. تارة، يُقال إنّه تُوفّي، قبل تكذيب الخبر. تارة أخرى، يُشاع أنّه مريض، فيتصدّى مقرّبون منه لقول كهذا، كي ينفوه. صُوَرٌ، منشورة في مواقع تواصل اجتماعي، يتردّد أنّها حديثة، تكشف آثار عمرٍ على محيّاه، إلى حدّ يصعب تصديق الصورة، وإنْ كان الممثل سيبلغ 84 عاماً في 17 مايو/ أيار 2024. لا يُراد له راحة، لا في حضوره الطاغي في الفضاء العام، ولا في انسحابه منه، أيّاً يكن سبب الانسحاب. سنون مديدة يمضيها في التمثيل، فيشعر برغبة في انكفاء عن العمل، والتفرّغ لنفسه وعائلته. هذا حقّ له. مسرحياته وأفلامه السينمائية وأعماله التلفزيونية كافيةٌ لتذكّره، ومحرِّضة دائماً على قراءات نقدية لنقاش، بل لمزيدٍ من نقاش، يُفترض به أنْ يُقدِّم جديداً، إنْ أمكن. الشخصيّ في حياته مُلكٌ له، وإصداره مذكّراته أو سيرتيه المهنية والحياتية، إنْ كان يرغب في ذلك، إضافة يستفيد منها مهتمّون ومهتمّات، مع التمنّي بأنْ تكشف المذكّرات والسيرتان المهنية والحياتية حقائق ووقائع، يختار منها ما يعتبره قابلاً للإشهار علناً، لا أنْ يحصّن الكتابة باحتيال ومواربة، ويستر ما يُفترض بالناس معرفته، وهذا غير قليل في الشخصيّ، كما في المهنيّ.

إعلانُ أخير (21 يناير/ كانون الثاني 2024)، يؤكّد اعتزال عادل إمام الفنّ، والتفرّغ لحياته العائلية (رامي إمام). هذا يجب أنْ يضع حدّاً لثرثرة غير منتهية، تخمد أحياناً، لكنّها تتصدّر، أحياناً أخرى، واجهة فراغ، ثقافي وفني وإعلامي . صحافي واجتماعي واخلاقي إلخ، يعانيه عالمٌ عربيٌ فاقِد أبسط مقوّمات عيشٍ طبيعي، لشدّة ما فيه من انهيار، منسحبٍ على كلّ شيءٍ تقريباً. لكنّ إعلاناً كهذا، مكثّفاً ومختَصراً وواضحاً، غير متمكّن من إسكات أناس همّهم الوحيد ثرثرة فاقعة بتفاهتها، مع أنّ كلّ ثرثرة تافهةٌ أصلاً. هذا غير مرتبط، إطلاقاً، بأي قراءة نقدية لنتاجه التمثيلي، المحتاج فعلياً إلى قراءات تجديدية، ففي بعض نتاجه ما يُثير متعة مُشاهدة وتساؤل وسجال، وفي بعض آخر ما يصنع مللاً وتكراراً وانحداراً في المهنة والاشتغال. هذا مرتبطٌ بتحيةٍ لممثل لن أردّد ما يوصف به (الزعيم)، فالألقاب والتسميات والأوصاف مسيئة إلى الفنان واشتغالاته، إنْ يكن مجدّداً ومبدعاً تحديداً، وإمام مُجدّدٌ ومُبدع، في مراحل مهنيّة من دون غيرها.